مفهوم الشعر عند جابر عصفور

-دراسة نقدية-

د.رباب هاشم حسين
كلية التربية/جامعة بغداد

1-المقدمة:

إن العودة إلى الموروث بجميع أشكاله وفصوله وبحسب ماتستدعيه الضرورة سواء الأدبية منها والمعرفية من الأمور التي تستحق الوقفة والإشادة بهـا، ذلـك أن هذا الموروث هو نتاج أمة وأصالتها، ولايمكن لنا إثراء هذا النتاج وهذه الأصالة من دون التنقيب جيداً في مخابئه السرية والعلنية على السواء ومناقشته مناقشـة علميـة لاتنظر إليه بعين التقديس والألوهية بل بعين التحـديث والتطـوير والاسـتمرارية، فالوقوف أمام هذا الموروث وعدم الإضافة إليه هو موت واندثار لـيس للمـوروث حسب بل إلى خطابنا المعاصر، ذلك أن أي خطاب في الوجود إذا لم يحصل علـى نوع من الإضافة سيظل جامداً في مكانه وبالتالي يفقد بريقه وفاعليتـه، لكـن هـذا لايعني بطبيعة الحال تحميل الموروث لأكثر مما يسـتجيب لـه ولا الركـون إلـى سطحياته وإغفال مدخراته ومخبوءاته. ومن بين الدراسات المهمة التي حلقـت فـي هذا الفضاء تقف دراسة جابر عصفور (مفهوم الشعر) الذي بذل جهداً متميزاً فيهـا من خلال تسليط الضوء على مفهوم الشعر لدى بعض النقاد القدماء محاولاً إبـراز الوعي الحضاري المتطور الذي احتمت به أسلافنا النقاد.

سنحاول هنا النظر إلى تجربة جابر عصفور ومعاينة القضايا الرئيسة التـي طرحها في كتابه اعتماداً على فهمنا لهذا الكتاب ولهذا الموروث. وقد قسمت إلى:

1- أسس الاختيار ودواعي الكتابة.
2- الموروث والرؤيا المعاصرة.
3- الشعر والأخلاق.
4- الشعر والوزن والقافية.

وهذا لايعني إطلاقاً أن الكتاب قد وقف عند هذه القضايا فقط، بل هناك من القضايا الكثير في متنه، لكننا اقتصرنا هذه لأهميتها ولتكريسها في منظومته النقدية.

أسس الاختيار ودواعي الكتابة:

أول مايتبادر للذهن من أسئلة في هذا المجال هو لِمَ وقع اختيار جابر عصفور على هذه الكتب دون سائر الكتب الأخرى من الذخائر والكنوز التي تحتويها المكتبة النقدية العربية لاسيما وأن الموضوع –مدار النقاش– قد تطرقت له وأحاطت به وأشاعته بشكل أو بآخر لكن هذه الأسئلة سرعان ما تتهاوى إذا ما وجدنا أن الناقد العربي العصري قد وقع اختياره بناءً على متطلبات بحثه ومنهجه، أي أن اختياره لهذه الأسماء لم يكن عشوائياً أو اعتباطياً وإنما قائم على أسس وضوابط ومن بين هذه الأسس اعتماده على:

1- الجانب الفلسفي.

2- الجانب النظري.

3- الجانب العقلاني.

4- الجانب التأصيلي.

5- الاقتراب من الفكرة المعالجة.

6- الجانب التكاملي.

أي أنه قد استعار أصوات النقاد الثلاثة للتعبير عن فكرته العصرية برغم الاختلاف في بعض الأمور معهم والذي يطالع الكتاب مليئاً سيجد أن عصفور أناط بمهمة التعبير عن رأيه لهذه الأصوات بل إلى إيجابية هذه الأصوات ولاسيما أخيرهم (حازم القرطاجني) الذي تكامل المفهوم لديه بعد أن أضحت المحاولات السابقة مادة خصبة "واستغلها في متابعة التأصيل النظري لمفهوم الشعر، فأعانته على الوصول إلى مفهوم متكامل لانجد له مثيلاً في التراث النقدي"[1]، لكنه وبرغم هذا التكريس لهؤلاء الكتّاب والإشادة بما أنجزوه على صعيد التأصيل لمفهوم الشعر لم يستطع أن يقدم أنموذجاً خالياً من الإخفاق فضلاً عن أنه أغفل الجانب التطبيقي في الكتب الثلاثة والإيحاء وكأنه عيب أو دليل على الإخفاق فما أن يذكر

"الوساطة"[2] أو "الموازنة"[3] إلا ويصفها بالتجزئية وعدم الشمولية، فالنظرية لديه هي الأساس ناسياً أو متناسياً أن أي نظرية مهما أوتيت من حظوظ القبول أو الانتشاء ستظل ناقصة لشروطها الموضوعية إذا لم تجد مساحة من التطبيق يجعل منها في متناول اليد، فما بالك والحديث عن مفهوم الشعر لذلك كان حديثه عن الجانب التنظيري أكثر روعة، في حين ظل يتلمس الإخفاقات في تطبيقاتهم المنهجية المهمة على الشعر وكأني به يهدم مايبنيه ويحاول التأسيس عليه، أي أن عصفور مشغوف بالنظرية وبالشمولية وبالمنطق الفلسفي حد الهوس مما جعله لاينظر لهذه الكتب إلا من جانب واحد وهو النظري غير مبالٍ بالجانب التطبيقي ولاسيما في كتاب "نقد الشعر" الذي يقترب لأن يكون كتاباً مدرسياً في النظرية والتطبيق.

2- الموروث والرؤيا المعاصرة:

وتكاد الرؤيا بآتجاه الموروث لاتنأى كثيراً عن الأسس التي وضعها لاختياره الكتب الثلاثة، فقد حاول بدءاً إبراز موقفين أو تصورين لا ثالث لهما حول الموروث يتجسدان في أن الأول "يتعامل مع التراث باعتباره كتلة من الأحداث والمفاهيم والقيم مستقلة عن وعينا وعن وجودنا تماماً ويمكن أن تعالج معالجة محايدة تحاول الوصول إلى الكينونة المتعالية لهذه الكتلة"[4]. أما الثاني فيتعامل مع الموروث "من منظور الوعي بالحاضر والإدراك للوجود الآني وذلك هو التصور السائد فضلاً عن انه التصور الممكن عملياً"[5] وعند قراءة التصورين الذين ساقهما الناقد يتضح ميله إلى التصور الثاني على الرغم من عدم نشر هذا الميلان بشكل مباشر وهو أمر نراهُ سديداً لاسيما وأن الموروث قادر على أن يساعدنا في فهم واقعنا "في ضوء مايؤرقنا من مفاهيم معاصرة ونبحث لديه عن إجابات وحلول لمشاكل تحيط بها ومهما تذرعنا بالنصفة والحياد وتحدثنا عن أخلاق العلماء فلن نستطيع أن ننفصل عن عصرنا تماماً ولن نستطيع أن نفصل موقفنا من الحاضر عن موقفنا من الماضي"[6] وهو بذلك يؤكد بشكل مباشر رؤيته نحو الموروث التي جاءت لتلبي حاجة عصرية لديه ولتأصيل مفهوم شعري يناضل في سبيل أن يعطيه بعداً تاريخياً[7]. فإنه وكما أكدنا سابقاً استعار أصوات النقاد للتعبير عن مايختلج في أعماقه من رؤى تجاه الشعر

ومفهومه هذا من جانب، أما الجانب الآخر فيتجه في رؤيته باتجاه الموروث ذاته التي تنأى عن معاصريه، فهو لايخشى كثيراً من الاختلاف مع الآخرين في فهم الموروث وعد التباين في الآراء حوله إثراء له ومن البديهيات يرونه "أمر ملزم بالضرورة لكل الأطراف ولإحياء أو إعادة التشكيل جهد لامناص منه وتعد الرؤى وتباين زوايا النظر إلى الحاضر نفسه"[8]، فالاختلاف لديه سينعكس إيجاباً على حياتنا المعاصرة كما يؤدي "إلى إضفاء الأصالة على الجديد في الحياة وهناك فرق بين من يعود إلى الماضي ليؤكد وضعاً متخلفاً في الحاضر وبين من يعود ليوصل وضعاً جديداً قد يطور الحاضر نفسه"[9].

لقد كانت هذه الرؤيا تجاه الموروث صائبة إلى حد بعيد شريطة أن لانحمل الموروث أكثر مما يجب فالتأصيل لنظرية ما أو لمفهوم عصري قد يجعله أكثر قبولاً ورصانة ويسهم في ترسيخه لكن لايعني عدم فقدان لجديته وتأثيره وعمقه المعرفي ويجب أن لاننسى أن لكل عصر ظروفاً مختلفة عن العصور الأخرى، أي أن هناك مواقف للإلتقاء وأخر للجفاء.

الشعر والأخلاق:

ومن بين القضايا المهمة التي تطرق إليها جابر عصفور في كتابه قضية الشعر والأخلاق كما جاءت لدى النقاد الثلاثة وفيما بعد لديه عارضاً إياها عرضاً مكثفاً وخارجاً منها بنتيجة أقرب إلى الموضوعية ولعلنا نجد توافقاً بعينه في منهجه العقلي القائم على أطر فلسفية فهو غالباً ماينسى المباحث الفنية في الشعر "ويسعى وراء أثر البيئات اللغوية والكلامية والفلسفية"[10] ومادامت الأخلاق أو علم الأخلاق هو جزء من الفلسفة أو الرؤيا الفلسفية التي تسعى "إلى تكوين تصورات مترابطة تربط العلة بالمعلول"[11]، فعلم الشعر لديه يتصل "بالمنطق كما يتصل بالصناعة المدنية من حسن غاياته وبالتالي بعلمي الأخلاق والسياسة"[12]، لذلك عمد إلى إبراز هذه القضية من خلال العرض لأفكار الثلاثة "ابن طباطبا وقدامة وحازم من دون إغفال إبداء الرؤى في هذه القضية فهو لم يتفق مع العلوي في طرحه لهذه القضية، إذ جسّد النظرة الأخلاقية بشكل مبالغ فيه، حتى انه قد بلغ به الأمر إلى استحسان

أبيات رثة الصياغة مادامت تحمل معنى أخلاقياً أي أن الشعر لديه لايصل الجودة المرجوة من نظمه إلا من خلال التركيز على الغاية الأخلاقية وذلك عن طريق "ربط الجيد من الشعر بتصوير المثل الأخلاقية"[13]، لذلك كثيراً ماتوقف العلوي أمام تفرعات هذه القضية وهي الصدق والكذب فالصدق لديه خاصية أساسية من حقائق الشعر لأن الشعر يبنى على القصد وكلما كان الشاعر صادقاً كان أكثر حفاظاً على المستوى الأخلاقي والفضائل العليا من ذلك قوله "ماخرج من القلب وقع في القلب وماخرج من اللسان لم يتعد (الاذان)[14]، لذلك عارضه جابر عصفور في موقفه هذا مفضلاً عليه قدامة بن جعفر وحازم القرطاجني، فقدامة برغم اتفاقه مع العلوي على الجانب الأخلاقي في الشعر إلا أنه يفارقه في التأكيد على الخصائص النوعية للشعر التي تجعله ينأى عن الحرفية والتطابق مع الواقع، فالشكل لدى قدامة هو الذي يؤثر في المتلقي ويغرس الفضائل "الإيماء واللمحة"[15] ولم يأخذ الصدق والكذب "وإنما ركز على الخصائص النوعية حسب فالشعر لديه لايعرض الفضائل عرضاً دائماً يقدمها من خلال وسيط حسي يبتعد عن الحرفية مادام "أحسن الشعر أكذبه"[16]. أما حازم القرطاجني– لدى عصفور فقد وصل في هذه القضية إلى مرحلة السمو والتكامل من خلال فهمه للعملية الشعرية إذ عدّها عملية تخيلية تتم في رعاية العقل[17] إلا أن هذا لايعني أنها فارغة من القيم الأخلاقية التي يتفق فيها مع سابقيه لكنه ينأى عنهم في النظرة إلى هذه القيم ووجودها في الشعر ويعزو سبب خمول الشعر وضعفه إلى نظرة "كثير من أنذال العالم يعتقدون الشعر نقص وسفاهة"[18]، لذلك حملهم مسؤولية إشاعة وهم أن الأقاويل الشعرية كاذبة وبالتالي محاربته على أساس أخلاقي بالغ القسوة فقد عدّ قوانين الصدق والكذب لايمكن تطبيقها على الشعر، أي أن الشعر محاكاة بحسب الفهم الأرسطي وليس ترجمة حرفية للواقع والشعر لديه لايكتب لغاية أخلاقية وإنما لغاية جمالية من خلال المحاكاة غير المباشرة لذلك انحاز عصفور إلى هذه الرؤيا وكرسها بشكل يناسبها ويناسب العصر الذي هو فيه.

الشعر والوزن والقافية:

تعدّ قضية الوزن والقافية من القضايا التي شغلت كثيراً من النقاد سواء أكانوا قدماء أم محدثين، ومن بين المحدثين جابر عصفور الذي تلمس هذه القضية وعدّها من القضايا المؤرقة له لاسيما وأن الاصطدام حولها لم ينفك بعد، فما زال النقاش حولها يدور مابين النقاد والمثقفين خصوصاً وأن قصيدة النثر الوليدة الخارجة من دائرة أطر الوزن والقافية قد أخذت تحتل مكانة لابأس بها في المدونة الشعرية العربية ولم يستطع الرفض الذي جوبهت فيه أن يحصرها في زاوية معينة. وعند الرجوع إلى هذه القضية وفهم جار لها يجد أن بذورها قد أخذت بالظهور لدى ابن طباطبا العلوي الذي لم يجد الوزن والقافية سبباً في وجود الشعرية وإنما هما مجرد قالب خارجي قد ترتبط البراعة فيه بالذوق قبل ارتباطها بانفكاكها عن الوزن، فجودة المعنى وجزالة اللفظ والتركيب يجعلها محافظة على جذوة الشعر فالشعر على حد رأيه "رسائل معقودة والرسائل شعر محلول"[19] وهو عكس ماذهب إليه قدامة بن جعفر، إذ عدّ الشعر "كلام موزون مقفى يدل على معنى"[20] إذ كان من أوائل من كرسوا اتصال الشعر بالوزن والقافية حتى أن هذا الفهم للشعر مازال إلى يومنا هذا متعلقاً بهذا المفهوم. أما حازم القرطاجني فهو لم يأخذ بهذه القضية على منوال قدامة وإنما يقوم الشعر لديه على ثلاثة أركان رئيسة وهي التخيل والمحاكاة يضاف إليها الوزن والقافية التي لم تكن لديه دليلاً على الشعرية "فهي ليست نظماً حتى لو كان لهذا النظم غرض وهي لاتقوم على الوزن قاراً بوجود صافي الأقاويل الخطابية التي هي نثر وفي ذلك يقول: "فما كان من الأقاويل القياسية مبنياً على تخيل وموجودة فيه المحاكاة فهو يعدّ قولاً شعرياً سواء كانت مقدمته برهانية أو جدلية أو خطابية يقينية أو مشتهرة أو مظنونة"[21]، وبذلك يوافق عصفور هذا الفهم وهذا التصور عادّاً "الوزن الشعري حركة طبيعية في اللغة تقرب على انتظامها الآلي في التعبير عن الآنفعال. وان الوزن الشعري هو إحدى الوسائل المرهفة التي تملكها اللغة كاستخراج ماتعجز عنه دلالة الألفاظ في ذاتها عن استخراجه من النفس الشعري"[22].

ونستخلص من رأي جابر عصفور أنّ فهمه للشعر أقرب إلى المألوف والشائع من أنّ هذا الفن لغة فنية منغّمة ولايمكن الحياد عن إيقاعها، وبذلك جعل الموسيقى ميزة ينفرد بها الشعر من دون الفنون الأدبية الأخرى، وعدّه وسيلة من وسائل فنية الشعر ومن طرف خفي هو لايؤمن بقصيدة النثر التي تجاوزت الوزن تجاوزاً خرج عن حدود الهدف المطلوب.

الهوامش

(1) مفهوم الشعر، د.جابر عصفور، المركز العربي للثقافة والعلوم، 1982، ص195.

(2) الوساطة بين المتنبي وخصومه، علي بن عبد العزيز الجرجاني، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ص114.

(3) الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري، تحقيق: أحمد صقر، دار المعارف، القاهرة، 1972.

(4) مفهوم الشعر، ص10.

(5) م.ن، ص10.

(6) م.ن، ص12.

(7) م.ن، ص10.

(8) م.ن، ص10.

(9) الصورة الفنية معياراً نقدياً، عبد الإله الصائغ، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط1، 1987، ص164.

(10) مفهوم الشعر، ص7.

(11) م.ن، ص5.

(12) م.ن، ص83.

(13) عيار الشعر، ابن طباطبا العلوي، تحقيق: طه الحاجري ومحمد زغلول سلام، القاهرة، 1965، ص63.

(14) م.ن، ص6.

(15) نقد الشعر، قدامة بن جعفر، تحقيق: س.أ. يونيباكر، مطبعة بريل، لندن، 1956، ص12.

(16) م.ن، ص26.

(17) مفهوم الشعر، ص245.

(18) منهاج البلغاء وسراج الأدباء، حازم القرطاجني، تحقيق: محمد الحبيب ابن الخوجة، دار الكتب الشرقية، تونس، 1966، ص124.

(19) عيار الشعر، ص15.

(20) نقد الشعر، ص15.

(21) منهاج البلغاء، ص67.

(22) مفهوم الشعر، ص77.

المصادر

1. الصورة الفنية معياراً نقدياً، عبد الإله الصائغ، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط1، 1987.
2. عيار الشعر، ابن طباطبا العلوي، تحقيق: طه الحاجري ومحمد زغلول سلام، القاهرة، 1965.
3. مفهوم الشعر، د.جابر عصفور، المركز العربي للثقافة والعلوم، 1982.
4. منهاج البلغاء وسراج الأدباء، حازم القرطاجني، تحقيق: محمد الحبيب ابن الخوجة، دار الكتب الشرقية، تونس، 1966.
5. الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري، تحقيق: أحمد صقر، دار المعارف، القاهرة، 1972.
6. نقد الشعر، قدامة بن جعفر، تحقيق: س.أ. يونيباكر، مطبعة بريل، لندن، 1956.
7. الوساطة بين المتنبي وخصومه، علي بن عبد العزيز الجرجاني، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر، 1977.